

## محبة الله.. طريق النور



الشارقة: علاء الدين محمود

«الناس في محبة الله عز وجل عام وخاص، فالعوام أحبوه لكثره نعمه ودوام إحسانه، إلا أن محبتهم تقل وتكثر، وأما الخواص فأحبوه لما عرروا من صفاته وأسمائه الحسنة، واستحق المحبة عندهم، لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم». (الجنيد البغدادي)

تلك الكلمات الطيبات التي تشع نوراً وتحتشد بفيوض المعاني الجميلة، هي للعلامة الجنيد البغدادي «215 – 298 هـ»، وهو من علماء المسلمين وصوفي شهير، يعد من علماء أهل السنة والجماعة، إذ جمع بين قلب الصوفي وعقل الفقيه، واشتهر بلقب «سيد الطائفة». وعده العلماء شيخ مذهب التصوف؛ لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، ولكونه مصنوعاً من العقائد الذميمية، محمي الأساس من شبهة الغلاة، سالماً من كل ما يوجب اعتراف الشرع. قال عنه أبو عبد الرحمن السلمي: «هو من أئمة القوم وسادتهم؛ مقبول على جميع الألسنة».

والمقولة تسافر بالمرء المؤمن الذي تعلق قلبه بالله تعالى إلى عوالم روحية بدعة تحفها الأنوار وتحتشد بأسرار الطريق إلى رب العالمين، وهو ما يصبو إليه كل مسلم، إذ يظل المرء العابد في شغل شاغل عن ملذات الحياة لا يرضيه إلا رضى الرحمن عنه، فتهفو روحه إليه وتتمنى لقاءه وهي تحمل من الزاد تقواه ومحبته.

ولعل أبلغ ما في هذه المقوله أنها صنعت «طبقات»، من المسلمين، لا يتصارعون بل يتنافسون في محبة الله تعالى والقرب منه، فهناك المسلم العادي من عوام الناس، الذي تكون محبته لرب العالمين بحسب أحواله في الدنيا وما يلقاه فيها من امتحانات ومصائب، فتقل وتكثر، وهناك حب من نوع آخر غير مشروط، فلا يتأثر صاحبه بشظف عيش أو مرض يصيبه أو نقص في الثمرات والأموال، أو غير ذلك من الابتلاءات، فهو على حبه لله عز وجل مقيم حتى وإن وجد في حياته من العناء والمشقة ما تنوء بها الجبال الراسيات، ومثل هؤلاء المسلمين هم من أصحاب المحبة الراسخة فقد عمر قلبه بالإيمان إذ يحسرون أن كل شيء هو من عند الله تعالى، فإذا كان الناس في الحياة الدنيا ينقسمون إلى طبقات من الأثرياء والفقراء، فإن الجنيد يلعب في تلك المقوله على هذا التقسيم الدنيوي، ويعمل على قلبه، بحيث أن الغني هو من كثرت ثروته من حب الله تعالى وترامت، بينما الفقر من كان حبه قليلاً وشحيحاً

#### دعاة •

هي دعوة للحب الصافي يطلقها الجنيد، يريد بها صلاح الناس والخير لهم، فليس هناك ما أهوا أسمى من محبة رب العالمين، التي لا تكون إلا بالطاعات والعمل الصالح، فلا يكفي أن يقول المرء إنه قد أحب الله تعالى، فلذلك الأمر شرطه، فإذا سار المسلم في طريق الأنوار كشفت له الأسرار وغمر قلبه الضياء وسكنت روحه الراحة والطمأنينة فلا يحتاج لغير الله تعالى، فتلك المحبة تغنيه وتنجيه، فهي قوت القلوب والأرواح، وقرة العيون، فعندما يفتقد المرء محبة الله فهو هي في عداد الأموات، جسد بلا روح، وبصر بلا بصيرة، يقع في ظلمات بلا نور، فتلك المحبة هي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال.

والمقوله الشذرية تنتمي إلى أسلوب الجنيد البديع في الخطابة البلاغية التي تمكنه من دعوة الناس إلى التدين وترك ملذات الدنيا، والعمل من أجل لقاء الله تعالى بعمل صالح وقلب ممتلىء بالإيمان فقد كان يقول: «واحذر الحسرة عند نزول السكرة فإن الموت آتٍ وقد مات قبلك من مات» وظل ذلك دينه في الحياة، وطريقه في التصوف، فكان يحرض الناس على الزهد لكونه يهذب الأنفس و يجعلها متهيئة لتلقي المدد والأنوار الربانية والحكمة، فكان يقول: «اتق الله ول يكن سعيك في دنياك لآخرتك، فإنه ليس لك من دنياك شيء، فلا تدخلن مالك، ولا تتبع نفسك ما قد علمت أنك تاركه خلفك ولكن تزود بِعْدَ الشُّقَّةِ، واعد العدة أيام حياتك وطول مقامك قبل أن ينزل بك قضاء الله ما هو نازل فيحول دون الذي تريده، صاحب الدنيا بجسده، وفارقها بقلبه، ولينفعك ما قد رأيت مما سلف بين يديك من العمر وحال بين أهل الدنيا وبين ما هم فيه، فإنه عن قليل فناؤه، ومخوف وباله، وليزدك إعجاب أهلها زهداً فيها وحزراً منها». «فإن الصالحين كذلك كانوا

#### اعتدال •

والجنيد في تلك المقوله يدعو إلى طريق الله تعالى، بالعمل وبالإقبال على اختبارات الدنيا ومصاعبها، فتلك هي التي تمحن المرء في محبته، لذلك كان الجنيد يرفض حياة الاعتزال والانكفاء على الذات والهروب عند الصوفية، بل رفض أن يكون ذلك الأمر مقترباً بها، فقد كان يشارك في الحياة العامة وهو صاحب تأثير فيها، وكان له مجلس خاص يلقى فيه الدروس ويفتني، ويعين الناس على دينهم ودنياهما، فتخرج على يديه كثير من العلماء في ذلك الوقت ربما كان أبرزهم: أبو بكر الواسطي وعمر بن عثمان المكي وغيرهما، فقد عرف بالدين قبيل دخوله في التصوف، وأنه كان يخالط الناس ولم يعتزلهم؛ فقد جنبه ذلك غضبة العوام التي طالت غيره من المتصوفة، فقد كان معتدلاً عارفاً للإسلام، وصاحب منهج واضح يستند إلى الكتاب والسنة، وذلك ما أورده أبو نعيم الأصفهاني في مؤلفه «حلية الأولياء»، حيث ذكر حديث الجنيد عن منهجه، ذلك الذي يقول فيه: «علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب». «الحديث ولم يتفق، لا يقتدى به.

© 2024 "حقوق النشر محفوظة لصحيفة الخليج".